اسم المفعول ومكانته البلاغية
في الإعجاز القرآني

د. مهدي محمد أبوبكر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة مقديشو

المقدمة:

إن القرآن الكريم هو موضع عناية المسلمين منذ أقدم العصور، فقد تتابعت أنواع التأليفات في أحكامه وفي تفسيره وفي بلاغته وفي لغته وإعرابه حتى لقد ازدهرت في الثقافة الإسلامية ضروب من العلوم والفنون حول القرآن الكريم وتحت رايته.

والقرآن الكريم كون عظيم لا نهاية له، وبحر واسع لا حدود له، كل عصر بمستواه الثقافي والحضاري يغترف من بحره، وينطلق من مبادئه، ويستنبط من أحكامه، ويعتبر بقصصه، ويتأدب بآدابه، ويكتشف غيضًا من فيضه.

ومن هذا المنطلق يتناول البحث قضية الإعجاز القرآني، حيث إن كل مفردة من مفردات القرآن الكريم يكمن فيها إعجاز فضلًا عن الجمل والتراكيب، والبلاغة العربية لم تبلغ لدرجة النضج في كشف الكثير من المعاني في القرآن الكريم كغيرها من فنون اللغة العربية، وسيركز هذ البحث استعمال القرآن الكريم بصيغ المشتقات وصيغة اسم المفعول خاصة ، ولكل صيغة من صيغ اللغة العربية لها دلالاتها التي تميز عن غيرها من الصيغ، والإعجاز القرآني يأتي من المفردات والصيغ وكيفية وضعها في المكان المناسب.

وأوجه الإعجاز في القرآن كثيرة ومتعددة ، بتعدد جوانب النظر فيه، ففي كل آية من آياته فيها إعجاز لفظي وبياني ودلالي، ثم كيفية الربط بين كل مجموعة من الآيات ثم السور بما فيها من قواعد عقدية، أو أوامر تعبدية، أو قيم أخلاقية ، أو مواصفات سلوكية، أو إشارات علمية مهما يكن موضوعها، كل ذلك يجعل القرآن متميزًا عن كل صياغة إنسانية، ويقر للقرآن إعجازه، وقد تناول المتقدمون والمحدثون الموضوع فكان منهم من رأى في جمال بيانه، وكمال بلاغته، أو دقة نظمه، أو في روعة معانيه وشمولها واتساقها، وقدرتها في مخاطبة الناس، على اختلاف مستوياتهم وأزمانهم، ومنهم من رأى أن إعجاز

القرآن الكريم من منهجه التربوي الفريد، أو النظم في القرآن، والنظم هو توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم من علاقات.

ومن أهم أهداف البحث التي يسعى إلى تحقيقها:

أ- تعميق فهم القرآن الكريم وأساليبه المختلفة لدى المهتمين في فهمه.

ب- معرفة أسراره التركيبية، أو ما يعرف بالنظم القرآني.

ج- معرفة أسرار الإعجاز القرآني ودقائق المعاني ولطائفها ودورها المهم وأثرها الواضح في تحديد المعاني وإدراك الدلالات.

ويتكون البحث من تمهيد عن المفعول ومشتقاته وأربعة محاور رئيسية تضم بعض الأسرار البلاغية لصيغة المفعول به في القرآن الكريم وهي: المبالغة في تحقير وذم المفعول به، وإلزام المخاطبين على الامتثال في إظهار علة الحكم، وتحويل الخطاب تأدبًا من أن يسند إليه الفاعل، وأخيراً الدلالة على حصول الفعل على وجه الكمال لتغطية المفعول به.

تمهيد: اسم المفعول ومشتقاته في اللغة العربية.

اسم المفعول مشتق من الفعل، ويدل على الحدث ومفعوله مثل: مكتوب، معلوم، محترم، فمكتوب يدل على حصول الكتابة على الشيء الذي كتب وكذلك الأمثلة الأخرى.

ويشتق اسم المفعول من الفعل المتصرف كاسم الفاعل، سواء أكان هذا الفعل متعديًا أم لازمًا، فإن كان فعله لازمًا ذكر بعد اسم المفعول حرف من حروف الجر، مثل: معطوف عليه، مستجار به، ومعفو عنه.

ويُصاغ من الفعل الثلاثي المجرد: ويأتي على وزن "مفعول" مثل: مفهوم، مسجون، ومضروب، وذلك إذا كان الفعل صحيحًا، فإذا كان الفعل أجوف واويًّا مثل رام ،قال ،قاد – كان الاسم المفعول منه على مقول، مروم. وإن كان أجوف يائيًّا مثل: باع، عاش، قاس، جيء على مبيع، معيش، مقيس. وإن كان الفعل ناقصًا يائيًّا مثل قضي، رمي، نهي

جيء به على: مقضيٌ عليه، مرمي، ومنهي عنه. وإن كان ناقصًا واويًّا مثل: دعا، دنا، عدا، جيء به على مدعو، ومدنو منه، ومعدو عليه.

إن صيغة "مفعول" إذاً هي الصيغة الأساسية للاسم المفعول الثلاثي المجرد ، وهناك صيغ أخرى فرعية ليست قياسية، وهي :

١- فعيل: وهي كثيرة جداً في اسم المفعول، وتدل على المبالغة غالبا مثل: جريح، طحين، فجريح وطحين أبلغ من مجروح ومطحون، وحميد أبلغ من محمود، وفى بعض الحالات تدل هذه الصيغة على ماتدل عليه صيغة "مفعول" مثل: وليد، قتيل، دفين، قرين.

٢- فعول: وهذه صيغة أخرى للمبالغة لاسم المفعول، وهي قليلة الاستعمال مقارنة بسابقتها في دلالة اسم المفعول، ومن ذلك : ركوب، لبوس، حلوب.

٣- فعلة: وهي صيغة لمبالغة اسم المفعول يقال : رجل ضحكة – أي يضحك منه الناس بكثرة.

٤- فاعل: ولا يستدل على أنها تدل على "مفعول" إلا بالسياق كقوله تعالى: ﴿ **فَهُوَ فِي** عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ [القارعة] أي مرضية، وقوله تعالى: ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الطارق] أي مدفوق كما يقال : طريق سالك أي مسلوك.

صيغه من غير الثلاثي: ويكون مما زاد على ثلاثة أحرف بوزن الفعل المبني للمجهول، بإبدال حرف المضارعة ميمًا مضمومة وفتح ما قبل الآخر، مثل: مترجم، مزخرف، مستجار به .

وقد يمنع الإعلال والإدغام من ظهور الفتح على ما قبل الآخر مثل : مختار، معان، مشاد به، محتاج، محتل.

فهذه إطلالة سريعة على اسم المفعول في اللغة العربية .[1]

الأسرار البلاغية لصيغة المفعول في الإعجاز القرآني.

أولاً: المبالغة فى تحقير وذم المفعول به.

من الأسرار البلاغية للقرآن الكريم استعمال صيغة المفعول وتفضيلها على صيغة الفاعل أو الفعل المبني للمجهول فى التعبير والاستعمال اللغوي العام- المبالغة في تحقير وذم المفعول به. ومن الأمثلة الواردة في القرآن قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

تدل الآية على جناية من جنايات المشركين، وهى أنهم ينسبون إلى الله عزوجل البنات، لأنهم جعلوا الملائكة بنات الله مع كراهيتهم البنات وحبهم للبنين، وفى الوقت نفسه يحكمون لأنفسهم بالعاقبة والنتيجة الحسنى افتراءً وكذبًا على الله، فأجابهم الله على افترائهم وجعل النار مثواهم الحقيقى، ونقطة حديثنا هنا هى كلمة (مفرطون)، وهى اسم المفعول من أفرط المعدَّى بالهمزة: تقول العرب أفرطته إلى كذا، إذا قدمته إليه، وفعله اللازم يكون فرط، إذا تقدم بالقصد. كما يقال فرط وفارط للمتقدم فى طلب الماء، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: (أنا فرطكم على الحوض)[٢]، وإفراط القوم المتقدمون منهم قال القطامى:

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنا كما تعجل فراط لوراد[٣]

فالكفار مفرطون إلى النار، أي مقدمون إلى النار، معجل بهم إليها فهم أول قوم يدخل فى النار، قدموا على غيرهم من الجماعات لتوغلهم فى الضلالة وتعدد جناياتهم وهذه درجة من العذاب أشد ألمًا، لأنهم أول من يدخل لهيبها الشديد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الإسراء]. يقول أهل اللغة أن (مستورا) بمعنى ساتر، وإطلاق كل من اسم المفعول واسم الفاعل يجوز أن يكون معنى مفرطون، منسيون فيها أبدا كما يقال أفرطت فلانا خلفى إذا تركته ونسيته، فهم لانحطاط شأنهم مؤخرون عن ساحة الكرامة

ودرجات الزلفى، وقد قرئ، مفرطون، بتشديد الراء وفتحها، من فرطته إذا قدمته، وهذه القراءة تتفق فى قراءة الأولى فى الدلالة، ونريد منها دلالتها تكرار الفعل مرة بعد مرة، لأن كل زيادة لفظ تدل على زيادة المعنى.

وقرئ (مفرطون) بكسر الراء وتخفيفها من أفرط فى الأمر إذا تجاوز الحد فيه فهو مفرط، وقرئ بكسر الراء وتشديدها من فرط فى الأمر إذا قصر(٤).

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة].

تدل الآية الكريمة على وصف صفة من صفات المنافقين، وهى كراهيتهم الجهاد فى سبيل الله إيثاراً لمتعتهم وشهواتهم على الجهاد فى نيل الشهادة فى سبيل الله عزوجل، علمًا بأن هؤلاء المنافقين لم يخرجوا مع رسول الله إلى الغزو، ولم يكتفوا بتخلفهم هذا، وإنما حاولوا إحباط وتثبيط همم المجاهدين والمؤمنين وتقديم أعذار واهية كشدة الحر فى وقت الغزو، وقد عبر القرآن الكريم عن تخلف هؤلاء المنافقين عن الجهاد باسم المفعول (المخلفون) بدل اسم الفاعل(المتخلفون) أو (خالفون) وسر عدم التعبير باسم الفاعل مع أن الصيغة من المشتقات وهما مشتركان فى المعنى وهو قعود المنافقين فى المدينة وعدم خروجهم إلى الجهاد مع رسول الله – أن دلالة اسم المفعول وما يوحي من معانى يختلف عما يدل عليه اسم الفاعل (مخلف) وهو اسم مفعول من خلف إذا تركه من خلف، أي فعل به هذا الفعل، لأنه ليس أهلًا لأن يكون مع المقدم، والمخلفون الذين فرحوا بالقعود خلاف رسول الله هم الذين خلفهم النبي ﷺ وأذن لهم فى التخلف، أو خلفهم الله تعالى بتثبيطه إياهم لحكمة علمها، أو خلفهم الشيطان بإغرائه، أو خلفهم الكسل والنفاق(٥).

والآية فى سياق أمر المنافقين على شنيع صنعهم، فجاء التعبير باسم المفعول ليدل وليفيد أن منزلة هؤلاء المنافقين أن يتركوا أو يهملوا لعدم الفائدة من خروجهم وعدم أهليتهم لمقام ولشرف الجهاد فى سبيل الله، فاسم المفعول (المخلفون) يقتضي التحقير والذم ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿ ۞ ...رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ... ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة]

وهي أمكن من استعمال لفظ المتخلفين إذ هي مفعول بهم، ولم يفرح إلا منافق، فخرج من ذلك الموضوع الثلاث وأصحاب العذر المقبول(٦).

والذين قعدوا أو لم يخرجوا مع المجاهدين، وهم الذين يقصد الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة].

والقسم الثانى الذين تحدث عنهم القرآن الكريم هم: النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والفقراء الفاقدون للزاد والمركب، والذين أشرنا إليهم وبيَّنا، وهم الذين لهم أعذار صحيحة ومقبولة، فهؤلاء لا يحقرهم القرآن ولا يزهق، وبالتالى لا عقاب عليهم، وقد ذكرهم الله جميعاً في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة].

والقسم الأول من الذين يتحدث عنهم القرآن وهم المنافقون افتعلوا عللاً وأعذاراً واهية، حيث استأذنوا الرسول ﷺ فى القعود بمبررات وعلل لا أصل لها، قال تعالى فى شأنهم : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [التوبة] فهم طلبوا واستأذنوا أن يأذن لهم الرسول ﷺ التخلف فخلفهم الرسول أي تركهم خلفه تحقيراً لهم.

يلاحظ فيما قدمنا أن القرآن الكريم لم يستعمل لفظ "المخلفون" إلا فى وصف المنافقين الذين جاءوا بأعذار واهية فى تخلفهم عن فريضة الجهاد، ولا فرق فى ذلك بين منافق المدينة وهم الذين تحدثت عنهم آيات سورة التوبة، وغيرهم كمنافقى الأعراب الذين تناولتهم آيات سورة الفتح فى قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ...﴿١١﴾ ﴾ [الفتح]، وإذا أنعمت النظر تجد أن القرآن الكريم عبر عن عدم خروجهم مع الرسول ﷺ بالمشتقات وفروع مادة "القعود" أو فى أكثر من موضع

مثل: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ... ﴿٨١﴾ ﴾ [التوبة]، ﴿ ... إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة]، ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ... ﴿١٦٨﴾ ﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿ ...وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [التوبة]. ومادة القعود تستعمل فى اللئيم المتقاعد عن المكارم.(٧) حيث يقول الحطيئة يهجو زبرقان بن بدر رضي الله عنه:

دع المكـــارم لا ترحـــل لبغيتهـــا واقعـــد فإنـــك أنـــت الطـــاعم الكاســـى

ففى هذا البيت المشهور فى الدراسات البلاغية والذي يعد من بدايات النقد فى الأدب العربى، وصف الحطيئة زبرقان بن بدر بالقعود، يزيد فى تحفيزهم ويتفق مع دلالة اسم المفعول " المخلفون". أما الذين لم يخرجوا اضطرارًا، فأمرهم وأعذارهم تخبر عن حالهم، ولذلك لم يستأذنوا ولم يطلبوا التخلف، ولم يخلفهم الرسول وإنما تخلفوا لعدم قدرتهم على الخروج، فهم قد تخلفوا مجبرين ، ولذلك لم يصفهم الله بالمخلفين بل وصفهم بالخالفين والخوالف فى قوله تعالى: ﴿ ... فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة]، وقوله: ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [التوبة]، والخوالف هن النساء ، لأن الرجال يغيبون فى خروجهم ومعاملاتهم وتجارتهم وهن يخلفنهن فى البيوت والمنازل وعملهن الطبيعي فى المجتمع المسلم، فالخالفون النساء ومن فى حكمهم يعنى متخلفون وليسوا مخلفين وفى تخلفهم ضرورة شرعية تبعدهم عن الذم والتحقير.

ولا تعارض بين تفسير " المتخلفون" أي المنافقون الذين خلفهم الرسول وبين قوله سبحانه عزوجل فى كعب بن مالك وصاحبيه الذين تاب الله عليهم: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ... ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة] لأن "خلِّفوا" بالبناء لنائب الفاعل يكون المعنى خُلِّف أمرهم وأُخِّر عن أمر أبى لبابة وأصحابه حيث لم يقبل منهم عذرهم، ولم يقع فى شأنهم بشيء إلى أن نزل العرض بهم، والإسناد إليهم وبإيجاز أو بتقدير مضاف فى النظم، وقد يفسر المتعدي باللازم بمعنى الذين تخلفوا عن الغزو، ومعنى ذلك أن اسم المفعول ومعناه ذم وتحقير للمنافقين فهم متروكون ومهملون ولا فائدة فيهم وهم كالمعدوم.

ثانياً: إلزام المخاطبين على الامتثال فى إظهار علة الحكم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] فقد عبر سبحانه عن الأب بصيغة اسم الفاعل لا يجزي والد، ولم يعبر عنه بصيغة اسم المفعول "المولود له" لأن السياق هنا فى سورة لقمان يختلف عن السياق فى آية البقرة، فالذي يتضح من سياق آية البقرة أن المقصود الإشارة فى علة وجوب النفقة على الوالد، فجاء اسم المفعول ليبرز جانب منفعة الوالد بولده، أما آية لقمان فقد جاء اسم الفاعل على الأصل، لأن المقصود نفي تحمل الوالد عن ولده شيئًا يوم القيامة، وليس المقصود إبراز منفعة الوالد بولده.

وإذا أنعمت النظر فى آية لقمان تجد أن الولد عبر عنه باسم المفعول فى قوله: ﴿ ...وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ ...﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] ولم يقل ولا ولد، فما السر فى ذلك؟ الشرح فى ذلك أن المقصود بالجملة تأكيد نفي إجزاء الولد عن والده، وإذا عبر عن اسم المفعول يحقق هذا المعنى دون لفظ "ولد"، لأن المولود لا يعبر إلا على الأب الحقيقي الذي هو من صلب أبيه، أما لفظ الولد فيطلق على ولد الولد وإن تباعدا عن الولد الحقيقى، فالولد أعم من المولود، والمولود أخص من الولد، فعدم نفع المولود لوالده الأقرب يكون أولى من عدم نفعه لغيره الأباعد، وهذا ما قصده الزمخشري عندما قال: "إن المعنى التوكيد فى لفظ المولود، أن الواحد منهم لو نفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلا عن أن يشفع لمن فوقه من أجداده، لأن الولد يقع على الولد ووالد الولد، بخلاف المولود فإنه لمن ولد منك"[٨].

ولهذا نجد أن المعنى الواحد عبر عنه بصيغ مختلفة، مع أن كل صيغة لها إيحاؤها ودلالتها التي تتناسب مع السياق الذي جاءت فيه، ولا يمكن وضع إحداها مكان الأخرى، وهذه علامة من علامات البلاغة القرآنية وعمود فقري من أعمدة بلاغته، كما قال الخطابى: " ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا

أبدل مكانه غيره جاء منه، إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة(٩).

ومن خصائص الترتيب والنظم في آية لقمان التعبير عن نفي إجزاء الوالد عن ولده بدون تأكيد لا يجزي والد عن ولده، عكس التعبير عن نفى إجزاء الولد عن والده، فقد جاء مؤكدًا بأكثر من مؤكد ﴿ ... وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ ...﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] عبر عنه بالجملة الاسمية التى تفيد الثبوت والدوام، وهذا عندما عبر عنه "مولود" مبتدأ، والجملة بعده خبر، وتأكيد الضمير المستتر فى اسم المفعول بالظاهر "هو" والتعبير باسم المفعول "مولود" دون ولد، والتصريح بلفظ "شيئًا" وهي تفيد تأكيد نفي حدوث أي منفعة على وجه العموم، ولو كانت قليلة لا تذكر، كل هذه التأكيدات ليست موجودة في الجملة الأولى، ووجه اختلاف الجملتين فى التأكيد.

قال ابن الأثير فى هذا الموضوع : "إن الله تعالى: لما أكد الوصية على الآباء ووصل شكرهم بوجوب شكره، واجب على الولد أن يكفي والده ما يسوء بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا وهم الوالد فى أن يكون الولد فى القيامة مجزيه بحقه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة، كما أوجب الله عليه فى الدنيا ذلك فى حقه، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع، لأن الله حضه عليه فى الدنيا لذلك كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، وكذلك العكس(١٠).

وكذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ ...﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة]، تتحدث الآية عن زمن إرضاع الولد، وأن أبعد هذا الزمن حولان، وتحدد من تجب عليه مؤنة المرضعة وهو الأب. والنقطة التى سنركز فى الحديث عنها تجاه الآية الكريمة هي قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ ﴾ لأنه عبر عن الأب باسم المفعول "المولود له" ولم يعبر عنه باسم الفاعل الوالد، لأن دقة المعنى تشبه الوالد إلى نعمة الأولاد، ومنها تحمل وتنسب إليه وتحمل اسمه، وتنتفع بها فى دنياه ويتركها بعده فى الدنيا على غرار المثل العربي الذى يقول:"ما مات من خلَّف" والأم

تكون بالعكس، بحيث لا تحمل الأولاد اسمها ولا تنسب إليها، فهي عبارة عن وعاء، وهذه نعمة من الله للآباء، وفى نفس الوقت ينبههم عليها ليلتزموا الحقوق الواجبة عليهم نحو أبنائهم، كما يقول الإمام محمود بن عمر الزمخشري- رحمه الله تعالى: " فإن قلت لم فعل المولود له دون الوالد؟ قلت: ليعلم أن الوالدات ولدن لهم، لأن الأولاد كالآباء ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات"[(١١)]. وروي أن المأمون بن الرشيد لما طلب الخلافة عابه هشام بن على فقال: كان إسماعيل من أمة، وإسحاق عليهما السلام ابن حرة، فأخرج الله تعالى من صلب إسماعيل خير ولد آدم، وأنشد عليه:

لا تــزر مــن بغنــى مــن أن تكــون لــه   أم مـــن الـــروم أو ســـوداء عجـــماء

فإنما أمهـــــــــات النـــاس أوعيـــة   مستــــــودعـــــات وللآباء أبنـــاء

فالتعبير باسم المفعول أظهر العلة التى اقتضت وجوب النفقة للمرضعة على الوالد، وفى هذا تشجيع على الامتثال، لأن ما يقدمه من نفقة وكسوة للمرضعة يرجع نفعه إليه عن طريق الولد الذي ولد له ونسب إليه، وقد أوضح هذا أبو حيان فى قوله: "إنه لما كلف من المرضعة لولده من الرزق والكسوة ناسب بأن ذلك الولد هو ولد له لا لأمه، وأنك الذى تنتفع به فى التناصر وتكثير العشيرة، وأن عليه الطوعية كما كان عليك لأجله كلف الرزق والكسوة لمرضعته".

وسياق الآية الكريمة يقتضي التعبير باسم المفعول دون اسم الفاعل، وإذا نظرنا إلى آيات أخرى فى القرآن الكريم سنجد أن السياق يتضمن التعبير باسم الفاعل دون اسم المفعول، وهذا هو وضع وشأن البلاغة القرآنية، وكل لفظ يقع في سياق معين لايمكن أن يحل محله لفظ آخر، ولقد وفق الإمام عبد القاهر الجرحانى عندما ألف "نظرية النظم فى القرآن " لأن الإعجاز القرآنى لا يأتى إلا من خلال هذا النظم الإلهي الحكيم.[(١٢)]

ثالثاً: تحويل الخطاب تأدبًا من أن يسند إليه الفاعل.

قال تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة]. والمعروف أن من مظاهر العبودية إلى الله سبحانه وتعالى "الدعاء" وهو يخبر العبادة كما ورد في بعض النصوص الأخرى، وهو إثبات من العبد المخلوق إلى الخالق، وقد ذكر فى الآية دعاء من أنفع أدعية المؤمنين، فهم يدعون ربهم أن يهديهم إلى الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه، وهو طريق الذين منّ الله عليهم نعمته من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لا طريق الذين أبعد الله عن رحمته حيث لعنهم وغضب عليهم وهم اليهود، وكذلك طريق الضلالة وهم النصارى.

ويدور حديث الآيتين فى التعبير باسم المفعول فى قوله تعالى: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بدل التعبير بالفعل مبنيًّا للمعلوم ولم يقل غير الذين غضبت عليهم ، كما قال: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ حيث لم يقل ويستند فعل الأنعام إلى ضمير لفظ الجلالة سبحانه وتعالى دون حذف الفاعل، واستند فعل الغضب إلى ضمير المفعولين بعد أن حذف الفاعل على صيغة اسم المفعول، والتعبير باسم المفعول يحقق فائدة جليلة وهي عدم إسناد الأفعال التى فيها ضرر وعقاب وعسر ومشقة وإيلام إلى الله سبحانه وتعالى تأدبًا فى الخطاب فلا يسند إلى الله عز وجل على لسان عباده المؤمنين إلا الخير والإحسان ،كما قال العلامة أبو السعود: "والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جريًا على منهاج الآداب التنزيلية فى شبه النعم والخيرات إليه سبحانه عز وجل دون أضرارها"[١٣].

وهذه خاصية من خصائص أسلوب القرآن الكريم، تفيدنا كيف يكون خطاب المؤمنين مع الله سبحانه إلى أفعال الخير والرحمة والبر والإحسان، مع أن جميع الأفعال خيرها وشرها من عند الله سبحانه.

ومثل ذلك حديث سيدنا إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ ﴾ [الشعراء] نرى سيدنا إبراهيم أنه قد أسند الإحسان والرحمة والخير كله إلى الله الخالق الجبار، حيث أسند الخلق حيث السقيا

والخلق والإحسان والهداية إلى الله، إذ إن كلها من الله تعالى، وأسند المرض إلى نفسه فقال:" إذا مرضت " ولم يقل وإذا أمرضني لأن ضرر المرض يلحق النفس تحكم بسنده إلى ربه فى الظاهر مع أنه من عند الله، وذلك لمراعاة الأدب فى الخطاب، وإذا تفكرت فى حديث نبي الله موسى مع الخضر عليه السلام، فتجد أنه قد أسند إرادة عيب السفينة إلى نفسه فقال: ﴿ ... فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ... ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] حيث أسند إرادة بلوغ الغلامين أشدهما ليتمكنا من استخراج كنزهما إلى الله عزوجل فقال: ﴿ ... فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ... ﴿٨٢﴾ ﴾ [الكهف] وقد أخذ هذا المنهج فى التعبير مؤمنو الجن فى حديثهم عن ربهم فقالوا: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الجن]، ويلاحظ أن البناء للمجهول "أريد" وما قالوا أراده ربهم كما قالوا فى الرشد.

ومن فوائد التعبير باسم المفعول فى سورة الفاتحة الآنفة الذكر للدلالة على عموم الفاعل، حيث إن أهل الضلال مغضوب عليهم من الله تعالى ومن عباده المؤمنين فى كل زمان، فخذف فاعل الغضب وقال:"المغضوب عليهم" لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب الله عليه بخلاف الإنعام فإنه لله وحده(١٤).

ومن فوائد التعبير باسم المفعول إفادة الثبوت والدوام، فغضب الله على هؤلاء لإثبات أنه لا يتبدل ودائم لا ينفك عنهم، وهذا المعنى لا يتحقق لو عبر عن الذين غضب عليهم بالتعبير دون دون حذف الفاعل وبناء الفعل للمجهول.

رابعاً– الدلالة على حصول الفعل على وجه الكمال لتغطية المفعول به.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور].

توضح الآية الكريم أن أمنا عائشة رضي الله عنها بريئة من حديث الإفك والبهتان، فمصطلح الآية يثبت سنة من سنة الله فى الخلق، وهي –كما يقال تقع الطيور بأشكالها– أن المتقين يجتمعون فى الصفات وأنه يختص كل منهما من الآخر، فالطيبة لا ينكحها إلا

الطيب، وأن الخبيثة لا ينكحها إلا خبيث، فهى سنة لا تتخلف، ويلزم منها تأكيد براءة أم المؤمنين عائشة من هذا البهتان العظيم، لأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها زوجة أشرف الخلق وأفضل المرسلين، وبالتالي هو من أفضل الطيبين وأولهم إلى أن تقوم الساعة، وهي أولى الطيبات وأطيبهن، ويثبت القصد فى الآية أو مربط الفرس كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ والله سبحانه وتعالى عبر "مبرءون" ولم يعبر بريئون، فإذا أنعمنا النظر فى الموضوع وتأملنا فى سياق الآية نجد أنها جاءت فى ختام حديث القرآن عن إفك المنافقين في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والبراءة جاء فعلها على اسم المفعول، فأفاد أن البراءة لم يفعلها بها، وإنما فعلها فاعل، وليس ذلك الفاعل إلا الله سبحانه فأم المؤمنين عائشة برأها الله، ولم يبرئها أحد غيره سبحانه وهي لم تبرئ نفسها، وبراءة الله أكمل وأدل على براءتها مما افترى عليها المفترون، والفاعل هو القادر الجبار الذي يعرف كل شيء عن هذه الحادثة وأسبابها.

وقد برأ الله أربعة بأربعة، برأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهلها، وبرأ موسى عليه السلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بنت عمران بإنطاق ولدها، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية مع هذه المبالغة[١٥]. ففى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ ﴾ إشارة إلى أهل البيت المنتظمين الذين وقفوا معها رجالًا ونساءً، فيروى أنه قيل للرسول ﷺ والصديق وأم المؤمنين عائشة وصفوان، واسم الإشارة أولئك فيه معنى البعد للإيذان بعلو منزلة المشار إليهم وفضلهم الواسع مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة] أي أولئك الموصفون بعلو المنزلة والشأن مبرءون مما يقوله أهل الإفك فى حقهم من الأكاذيب الباطلة.[١٦]

ويقول الله تعالى فى هذا السياق: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥ ﴾ [البقرة] تتناول الآية الحديث عن الثواب العظيم الذى أعد الله لعباده المتقين فى الآخرة وكل الأوقات، وأزواج طهرن من كل مستقذر، وإقامة مستمرة فى جنة الخلد، والثبات التى لا تخاف زوالها بأي

حال من الأحوال. وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ هي نقطة التركيز والاستشهاد، والأزواج يطلق لكلا الفريقين من الذكور والإناث فى الحيوانات المتزاوجة، ويقصد هنا نساء اللاتى يختصن بصفة الحيض والتى لا يشار لها الرجال، أي متطهرون من الأقذار المعروفة لدى النساء الدنيا كالحيض والنجاسات ودنس الطبع وسوء الخلق.(١٧)

والله سبحانه وتعالى وصف أزواج الجنة بقوله:" مطهرة" على صيغة اسم المفعول وهي قراءة الجمهور، وأفادت هذه الصيغة أن الأزواج لم يفعلن التطهر بأنفسهن، وإنما طهرهن مطهر ، والفرق يأتى من كونهن طهرن من جهة خارجة عنهن، فالفاعل غيرهن وهو الله سبحانه وتعالى، وما يأتى من الله عزوجل فهو شيء وصل الغاية فى كمالهن وكماله مستمد من كمال فاعله كما يقول أبو السعود فى تفسيره :" ومطهرة من طاهرة ومطهرة للإشعار بأن مطهراً طهرهن، وماهو إلا الله سبحانه وتعالى"(١٨). وفى هذا دلالة على تعظيم الله لنساء الجنة واختصاصهن بالطهر الكامل، وهذا الطهر الكامل يميزهن عن نساء الدنيا.

والاختصاص بالطهر الكامل، وهذا الطهر يميزهن عن نساء الدنيا اللاتي يقمن بتطهير أنفسهن، فهو تطهير ناقص لا يماثل تطهير نساء الجنة، ومما يدل دلالة مؤكدة بهذا المعني أن وصف الأزواج بالطهر على صيغة اسم المفعول وصف أزواج الجنة، فقد وصفهن بهذه الصيغة ثلاث مرات : مرة في سورة البقرة التي نحن بصدد تعليقها، وأخرى في قوله تعالى: ﴿ ... وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾[آل عمران] وأيضاً في قوله تعالى: ﴿ ... لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [النساء]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الواقعة]، فالوِلْدان موصوفون باسم المفعول، "مخلدون" أي خلدهم مخلد، وهو الله سبحانه وتعالى، ومع أن خلود أهل الجنة في الكبار وفي الصغار على السواء هو من عند الله، وهو الفاعل له إلا أن القرآن الكريم عبر عن خلود الكبار باسم

الفاعل "خالدون" في قوله تعالى: ﴿ ۞ ... أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس].

وبالعكس عبر عن خلود الغلمان بصيغة اسم المفعول "مخلدون"، ومع أن خالدون بمعنى مخلدون، فقد ورد في لسان العرب وأهل الجنة خالدون مخلدون إلى الأبد، والسر في ذلك أن الخلود في الجنة وإن كان تفضلًا من الله ، وتكرمًا على عباده إلا أنهم لا يكونون أهلًا لهذا التفضيل إلا بأعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، فكونهم أهلًا لهذا التفضيل عبر عن الفاعل في وصف المؤمنين الذين قدموا في الدنيا الأعمال الصالحة ، أما الولدان وهم أطفال الدنيا فلم يعملوا أعمالا في الدنيا تسوغهم أن يكونوا أهلًا لفضل الله، فعبر باسم المفعول إشارة إلى أن خلودهم لم يكن لأهليتهم، كما كان الكبار، وإنما خلودهم منحة خاصة، وهناك رأي آخر وهو أن معنى مخلدون يبقون أبداً على شكل الولدان، وهم لا يتحولون ولا يعتريهم الشيب فيبقون على حالهم، وكل أهل الجنة يشتركون في هذا، فلا يتغيرون ولا يشيبون مع خلودهم الدائم، ولكن الله سبحانه وتعالى أكد بالغلمان لئلا يظن ظان بأنهم سيتغيرون.

ومن هذا السياق الذي نحن بصدده قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات] وموضوع الآية هو الحديث عن وعد الله لرسله وجنوده بالغلبة والنصر، وهو سيتحقق وقوعه ولا يتخلف، سبق به الكتاب قبل أن ترفع الأقلام وقبل أن تجف الصحف، ومما يلفت النظر أن الله عبر عن نصر المؤمنين باسم المفعول "المنصورون" وغلبة الجند عبر عنه باسم الفاعل "الغالبون" والله سبحانه وتعالى وهو أعلم منا بمراده كأنه يقول لنا: لا يتحقق النصر إلا باكتساب العبد قدراً معيناً من الجهد، والله سبحانه وتعالى يؤيد وينصر عباده الذين ينصرونه، ولهذا لم يسند النصر إلى الرسل والمؤمنين في الأسلوب القرآني، وإنما أسند إليه فقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿ ...وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]، أما الغلبة فهي أمر ناتج عن

حصول النصر لهم، فمن ينصره الله يكون غالبًا على عدوه، حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ ...﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران]، فكون الجند غالبين أمر مرتب على نصر الله، وعلى هذا التفسير أو التأويل يكون الجند في الآية هم الرسل والمؤمنون، وهو من باب ذكر العام بعد الخاص للتأكيد.

وهنا نرى أن الغلبة قد أسندت إلى الله وإلى الرسل في قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ ﴾ [المجادلة]، وقوله تعالى: ﴿ ... فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الصافات]، جاء إسناد الغلبة باسم الفاعل إلى الجند الغالبين، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]، وهذه الآيات تكون متفقة مع نظائرها، وللإشارة إلى أن نصر الله جرى على أيد الجند فكان لهم الغلبة، وإذا دققنا النظر في آية الصافات ﴿ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾[الصافات] نرى أن النصر والغلبة أسندا إليهما على وجه تأكيدات متعددة وذلك مثل: اسمية الجملة وأنّ واللام وفصل الضمير وتعريف الظرفية المفيد للاختصاص، ويكون المعنى أن النصرة مقصورة على الرسل، والغلبة على الأعداء مقصورة على جند الله، وهم المنصورون على أعدائهم بكونهم مؤيدين بالحجة القاطعة الدالة على صدقهم وحقيقة أمرهم وإنهم هم الغالبون بها عليهم في الدنيا كما أنهم غالبون عليهم بالعقبى بالسعادة الأبدية ولا تكون الغلبة والاستيلاء الظاهرة للكفار على بذرة الحكمة كقصور الجوانب الأخرى ومخالفة السنن والقوانين التي عليها كما في غزوة أحد، عندما خالف الصحابة أمر النبي ﷺ، إن قصد الغلبة من جند الله أمر يتعلق في كل الأوقات وليس على الغالب وليس حسب ما تفيده إضافتهما إلى لفظ الجلالة سبحانه، فهم جند الله الذين يقاتلون إظهاراً لدينه ودفاعاً عن العقيدة، فالفعلية لهم دائما إذا كانت هذه المعاني في نفوسهم، وإذا غلو عن بعض هذه المعاني فلا تكون لهم الغلبة لأنهم حينئذ ليسوا جند الله.

ولذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى وصف عباده "بالمخلصين " بل صيغة اسم المفعول في كثير من الآيات الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ...كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الصافات] وكذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص] ومخلص اسم مفعول من أخلص لله تعالى واختارهم لطاعته بأنهم مخلَّصون عما هو فادحهم فيها وهذا اصطفاء من الله لا يظفر به إلا من كان أهلًا له، وهم أنبياء الله وخاصته من عباده.

وعندما نمعن النظر في الآيات التي وصف الله فيها عباده "بالمخلصين" نرى أن لفظ "عباد" أضيف إلى لفظ الجلالة سبحانه وتعالى أو إلى ضمير يعود إليه، وهذه الإضافة تدل على اهتمامهم البالغ لعبادة الله، وهذا شرف ما بعده شرف، فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي القاسم سليمان الأنصاري أنه قال: (لما وصل النبي ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة أوحى الله تعالى إليه يا محمد بم يشرفك ؟ فقال: بنسبتي إليك للعبودية، فأنزل الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ... ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]، و"مخلصين" وقعت على صيغة اسم المفعول ووقعت نعتًا للعباد في الآيات، وهي صفة ثابتة لازمة لهم اختصهم الله بها ورباهم عليها، وهذا بخلاف "مخلصين" بتعبير اسم الفاعل، فقد وقعت حالاً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ ﴾ [الزمر]، وكقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت]، ووقع حالاً، والحال وإن كان صفة كالنعت وفيها ضمير يعود إلى الاسم فإنها ليست بصفة لازمة للاسم كالنعت، وإنما هي صفة للاسم في حيز وجود الفعل خاصة.[١٩]

من أهداف البلاغة حذف الفاعل في صيغة اسم المفعول، والحذف في اللغة العربية هو قطع الشيء من طرفه، وهو نوع من أنواع الإيجاز، يعطي الكلام ويكسبه جمالاً ويزيده تمكيناً وتثبيتاً، ويكثر من دلالته وإيحائه، وفي الحذف يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله : "هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت من الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيِّنًا إذا لم تبين، ويقول فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم

أصيب به موضعه، وحذف في حالٍ ينبغي أن يحذف فيها، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى أن إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به"[٢٠] والأهداف البلاغية الدالة إلى حذف الفاعل كثيرة وهي تفوق الحصر والعدد، وهي تخضع في معرفتها على السياق والتأمل وكشف المقامات.

ومن الأهداف والأسرار في حذف الفاعل تعظيمه بالإشارة إلى أن هذا الحذف لا يصدر إلا به، فالفاعل معلوم وإن لم يذكر في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنبياء].

فحفظ السماء من الوقوع أو من استراق السمع بالشهب لا يكون إلا بقدرة الله سبحانه، فالفعل ينصرف إليه، لأنه لا يصدر إلا منه. ومن ذلك قوله تعالى :﴿ ...وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر]، وطيّ بساط السموات يوم القيامة وتغيير شكلها حكم لا يأتي إلا من الله ، وحذف الفاعل عن طريق اسم المفعول، لأن الفعل ينصرف إليه وإن لم يذكر في الكلام، وهذا يدل دلالة واضحة على كمال القدرة وغاية العظمة.

ومنها الدلالة على عموم الفاعل، وأنه لا يختص فاعل دون آخر كقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المعارج]، فعذاب الله لا يأمنه أحد وإن كبرت مكانته العلمية والتعبدية، فهولاء الذين تتحدث عنهم السورة مع رسوخهم في طاعة ربهم خائفون من العذاب، وغيرهم ينبغي أن يكون أكثر من الخوف من الله تبارك وتعالى، وقوله تعالى: ﴿ ...إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء] فالحذر من الله ومن عذابه أمر ينبغي أن يكون من جميع الخلق بما فيهم الملائكة والأنبياء المعصومون، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء].

الهوامش

(١) محمد خير حلواني، الواضح في علم الصرف، دار المأمون للتراث، ط/ ١٩٨٧م.

(٢) أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة : ٤٩.

(٣) الألوسي، روح المعانى في تفسيرالقرآن العظيم والسبع المثاني:١٤/ ١٧٢. مكتبة دار التراث، القاهرة.

(٤) القراءات فى تفسير أبى السعود: ٥/ ١٢٢.

(٥) الألوسي :١/ ١٥٠-١٥١، مرجع سابق.

(٦) انظر البحر المبسط: ٥/ ٧٩.

(٧) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٤٢٤، دار الفكر – بيروت.

(٨) الزمخشري، تفسير الكشاف: ٣/ ٤٠٤، دار الكتاب الغربي – بيروت.

(٩) ثلاث رسائل إعجاز القرآن- رسالة البيان فى إعجاز القرآن ص:٢٩.

(١٠) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من مسائل والاعتزال على حاشية الكشاف : ٣/ ٥٠٤.

(١١) الزمخشري: ١/ ٢٧٩، مرجع سابق.

(١٢) تقسم البحر فى جهات الأندلس :٢/ ٢١٤ ط دار الفكر للصياغة والنشر.

(١٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ١/ ١٩، دار إحياء التراث العربي، بيرت.

(١٤) ابن القيم، بدائع الفوائد: ٢/ ٢٠

(١٥) تفسير البيضاوي- هامش حاشية الشيخ زاده: ٣/ ٤٣٠- ط المطبعة العثمان- تركيا.

(١٦) أبوالسعود: ٦/ ١٦٧، مرجع سابق.

(١٧) الراغب الأصفهانى، معجم مفردات ألفاظ القرآن ، دار الفكر- بيروت، ص ٢٢٠.

(١٨) أبو السعود : ٧١٠، مرجع سابق.

(١٩) ابن القيم الجوزية، جـ١،ص١٨٤، مصدر سابق.

(٢٠) الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط الخانجي، ص : ١٦٤

قائمة المصادر والمراجع

١- أبي سعود، تفسير أبي سعود،المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي- بيروت .

٢- أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة.

٢- البيضاوي، تفسير البيضاوي(أنوار التنزيل وأسرار التأويل)- هامش حاشية الشيخ زاده: ٣/ ٤٣٠- المطبعة العثمان- تركيا.

٣- الزمخشري، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤- تقسم البحر لا فى جهات الأندلس :٢/ ٢١٤ دار الفكر للصياغة والنشر.

٥- الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من مسائل الاعتزال على حاشية الكشاف : ٣/ ٥٠٤.

٦- ثلاث رسائل إعجاز القرآن- رسالة البيان فى إعجاز القرآن.

٧-محمد خير حلواني، الواضح في علم الصرف، دار المأمون للتراث، ط/ ١٩٨٧م.

٨- معجم مفردات ألفاظ القرآن للعلامة الراغب الأصفهانى، ، دار الفكر بيروت.

٩- ابن القم الجوزية، بدائع الفوائد، ، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠- الإمام عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، دار المعرفة للطباعة والنشر، بتحقيق: محمد رشيد رضا، بيروت لبنان.

١١- ----------، دلائل الإعجاز،ط الخانجي، تحقيق محمود شاكر.

١٢- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مكتبة دار التراث، القاهرة.

١٣- ابن الرشيق القيرواني، العمدة، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، دار الجيل،ط٤، ١٩٧٢م.

١٤- مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوجيز، ط١٩٨٠م.

١٥- ابن المنظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

١٦- أبوحيان، البحر المحيط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.

١٧- محمود فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ط١٩٩١م.